الأنساق الإيديولوجيّة في الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر

Ideological contexts in the modern Arabic critical discourse

د.زهيرة بارش[1,*]

1جامعة سطيف2، الجزائر، nour1yakine@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**:2023/02/06 **تاريخ النشر**: 2023/03/31

ملخص:

النّقد قراءة فاحصةتحفر في دهاليز النصوصلكشف بنياتها العميقة وأنساقها المضمرة، مما يؤدّي إلى إنتاج نص جديد، يعبّر عن موقف متكامل لصاحبه ورؤيته النقدية الخاصة، بلغة خاصة ذات دلالة.

ولا غرابة أن يكون هذا النص الجديد وسطا فعالا للإيديولوجيا بل هو منتجها، لأنه لا يمكن فصل الناقد عن أفكاره ومواقفه، كما يمكن لهذا النص أيضا أن يخفي هذه الإيديولوجيا ضمن أنساقه المضمرة، فتبدو كبينات لغوية/فكرية أكثر منها إيديولوجية.

وتحاول هذه الورقة البحثية، الكشف عن الأنساق الإيديولوجية المتضمّنة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ومساءلة خلفياتها المعرفية، مع تبيان حدود العلاقة بين الموقف النقدي وإيديولوجيا الناقد.

الكلماتالمفتاحية:

الأنساق الإيديولوجية، النص الإبداعي، الرؤية النقدية، النسق المضمر، الموقف النقدي.

Abstract:

Criticism is an accurate reading that can delve deeper into a creative text inorder to produce a parallel text. The latter expresses a people's integrated position and critical vision using a language and gestures that have meanings. It is obvious that the parallel text is not only an effective field for ideology but it is also the producer.

Thus, it is impossible to separate the critic from his ideas and positions, because the text could hide that ideology with its hidden contexts to be seen as linguistic structures.

The present research aims at highlighting ideological contexts included in modern Arabic critical discourse,and wonder about its knowledge sets, and mentioning the limits of the relation between the critical position and the critic's ideology.

Key words: *ideological contexts, creative text, critical vision, hidden context; critical position*

.

* المؤلف المراسل

-تقديم:

النّقد قراءة فاحصة في أعماق نصّ جمالي لاكتشاف ما استعصى من المعاني، وتجلية ما خفي من الأنساق، فتكون النتيجة نصّا ثانيا يعبّر فيه الناقد عن موقفه ورؤيته النقدية الخاصة، بلغة ذات دلالة.

وإذا سلّمنا سلفا بصعوبة فصل الذات الناقدة عن الموقف النقدي الذي تتخذه، فإن النّص الثاني الذي أنتجته يغدو وسطا فعالا للإيديولوجيا بل هو منتجها، كما يمكن أيضا لهذا النّص أن يخفي هذه الإيديولوجيا ضمن أنساقه المضمرة، فتبدو كبينات لغوية/فكرية أكثر منها إيديولوجية.

ونسعى من خلال هذه الورقة البحثية، إلىالكشف عن الأنساق الإيديولوجية المتضمّنة في الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر، مع تبيان حدود العلاقة بين الموقف النقدي وإيديولوجيا الناقد.

وقبل ذلك سيتم التّوقف عند المفاهيم الأساسية لهذا الموضوع التي من خلالها يمكن الولوج إلى صلبه بعد تهيئة نظرية ضرورية، من قبيل: النسق، الإيديولوجيا، النقد الإيديولوجي وخلفياته المعرفية، الإيديولوجيا والنقد وغيرها.

1-مفهوم النّسق:

يتّضح من خلال العودة إلى معاجم اللغة العربية أن خلاصة مفهوم النسق هي ورود الكلام على نظام واحد، والتّنسيق هو التّنظيم، فالنّسق من كل شيئ: هو ما كان على طريقة نظام واحد، ونسّق تنسيقا أي نظّم تنظيما[1]. وتكاد تتّفق كل التّعريفات اللّغوية على أن النّسق نظام موحد يميّز كل الموجودات في الكون. ومنهاشتقت كلمة النّسقية للدّلالة على التنظيم والتماسك والترابط بين أجزاء الكلام ليبدو بنية نصيّة موحدّة ومتماسكة.

أما في الاصطلاح،فيذكر **الغذامي** أن الاستخدام الكثير لهذه الكلمة في الخطابات العامة والخاصة، من شأنه أن يشوه دلالتها، فهي تبدأ بسيطة كأن تدل على النّظام الواحد، ثم تتطوّر لتصبح رديفا لمصطلحات أخرى، من قبيل: البنية والنظام، كما جاء ذكره عند العالم اللساني **فرديناند دوسوسير**.ويعد **الغذامي** النّسق مفهوما مركزيا في مشروعه النقدي، ويرى أنه يكتسب قيمته ضمن إطار دلالي واصطلاحي يحدده، فالنسق ليس له وجود مجرد إلا عبر وظيفته النسقية، وينقسم إلى قسمين: ظاهري ومضمر،حيث نجدهما معا في النص الواحد، والمضمر يكون نقيضا ومضادا للعلني.[2]

والنّسق ذو طبيعة سردية ودلالة مضمرة مبطنة في الخطابات "تستخدم أقنعة كثيرة، أهمها الجمالية اللغوية، لتمر آمنة مطمئنة من تحت هذه المظلة الوارفة، وتعبر العقول والأزمنة فاعلة مؤثرة"، فالنسق –حسب رأي **الغذامي**- يتميز بخاصية التأثير الخفية التي تمارس تحت قناع الجمالية اللغوية، التي يعمل من خلالها على إقناع المتلقي حتى بما يتعارض مع توجهاته، من خلال التأثير الوجداني الذي تولده البنية اللغوية الجميلة، فتتأسس بداخل هذا المتلقي أنماطا أخرى هي صور ثانية لهذه الأنساق.[3]

2-مفهوم الأيديولوجيا:

الأيديولوجيا مفهوم متعدّد الاستخدامات وتُعرّف بناء على الحقل الذي توظّف فيه، فنجد الأيديولوجيا في علم السياسة والقانون وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية بما فيها الأدب والنقد، وفي كل ميدان تأخذ دلالة تتناسب والسياق العام الذي وُظّفت فيه، لكن التعريف الأكثر توافقا عليه هو كون الإيديولوجية علم الأفكار، وهي مجموعة الآراء والمعتقدات والفلسفات التي تؤمن بها أمة أو شعب أو حزب أو جماعة، في هذا السياق يعرفها **محمد برادة** بقوله: "مجموع الأفكار والمعتقدات وطرائق التفكير المميزة لفئة ما، مثل أمة أو طبقة أو طائفة أو فرقة أو حزب سياسي"[4]

وقد ظهر المصطلح بداية مع الثورة الفرنسية في ميدان السياسة، وبالضبط مع ظهور الفكر الماركسي على يد **كارل ماركس**، ثم اتسع وامتد ليشمل مجالات الحياة المختلفة، متخذا من الدين والتاريخ والاقتصاد والسياسة مرجعيات أساسية لتشكيل خلفياته ورؤاه "قد يرتكز الخطاب الإيديولوجي على الدين أو الاقتصاد أو التاريخ أو التنظيم الساسي، وهي أساسا مرجعيات جوهرية في معرفة توجهات الخطاب الإيديولوجي"[5]

3-الأيديولوجيا والنّقد:

دعت المنطلقات الفلسفية التي نهل منها النّقد الإيديولوجي وعلى رأسها الفكر الماركسي إلى تغيير وجهة المقاربة النقدية، إذ أصبح تقييم النصوص يخضع لمدى استجابتها للمتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية، فكانت الدعوة إلى تغيير الأشكال الأدبية لتتماشى وتحقيق هذه الغاية أي خدمة الحاجة الاجتماعية للفرد، ودون الاشتغال في هذا المدار من شأنه أن يعزل الناقد ويفرغ نشاطه النقدي من أي قيمة أو فائدة.[6]

وكان من أبرز نتائج اهتمام النّقد الماركسي بإيديولوجية النص الأدبي، أن أصبحت دراسة المضامين من المهام الأساسية للنقد الأدبي، إذ تصنف في المستوى الأول ثم تأتي بعدها الجوانب الفنية.

4-مفهوم النقد الإيديولوجي:

النّقد الإيديولوجي هو النّقد الذي يقارب النصوص تحت تأثير معتقدات أو أفكار النّاقد الذي يمارسه، وغالبا ما يحدث ذلك عن طريق الاستسلام اللاّشعوري لتلك المعتقدات، وعن طريق المواقف النقدية الجاهزة، فينتج عن ذلك نص مشوه ضيق الأفق، مشوه الوعي، يتعسر على المتلقي فهمه فهما موضوعيا، ذلك ما عبر عنه **عبد الله العروي** في قوله: "الإيديولوجيا عملية ذهنية يقوم بها المفكر وهو واع، إلا أن وعيه زائف لأنه يجهل القوى الحقيقية التي تحركه، ولو عرفها لما كان فكره إيديولوجيا" [7]، فالخطاب الإيديولوجي يحمل معه الكثير من الأقنعة والأفكار المضللة نتيجة اختفاء الحدود بين ما هو أيديولوجي وما هو غير ذلك.

5-نشأة النقد الإيديولوجي وخلفياته المعرفية:

يتّضح من خلال البحث في الأصول المعرفيّة للنّقد الإيديولوجي أنّ الفكر الماركسي الغربي شكل مرجعية هامّة في تغذي هذا التّوجه النقدي، حيث دعت الماركسية إلى تفكيك البنية اللغوية الضيقة للنص والانفتاح على سياقاته الأخرى، ومن خلاله تفكيك بنية المجتمع الطبقي والانفتاح على الطبقات الأخرى.

ويقدّم **تيري إيجلتون** دراسة هامة في هذا السيّاق من خلال كتابه "النقد والإيديولوجية" التي يتعرض فيها لمفهوم الأيديولوجية، متمكّنا فيه من تجاوز التعريف الماركسي التقليدي الذي يعتبرها وعيا زائفا إلى مسارات أخرى، ويدخل الكتاب ضمن سلسة علمية بدأها ب "الماركسية والنقد الأدبي" سنة 1976، ويعدّ من أهم الدراسات التي تناولت العلاقة بين الاديولوجية والشكل الأدبي في النقد المعاصر، ويتطرق **ايجلتون** في مؤلفه هذا إلى الحديث عن الديموقراطية والجماهير وعلاقتهما بالنقد والأيديولوجية، فالكتابة الإبداعية هي دراسة تفصيلية شارحة للأشكال والمفاهيم الاجتماعية. [8]

6-بدايات النقد الأيديولوجي في الفكر العربي الحديث:

يشير**سعد البازعي وميجان الرويلي** في كتاب "دليل الناقد الأدبي" إلى أن مفهوم النقد الإيديولوجي قد عرف عدة تسميات في النقد الغربي ذاته، من قبيل: النقد الاجتماعي، النقد اليساري والماركسي وغيرها، وامتد هذا التعدد الاصطلاحي إلى الساحة النقدية العربية على حسب مستخدميه، فكل ناقد يتبنى مصطلحات وفقا لخلفيته المعرفية والإيديولوجية، بل هناك من نقادنا العرب من وصفه ب "النقد الممثل للحداثة في وجه القدم" و" النقد الصحيح" مقابل "النقد الخاطئ"، وقد عمرت هذه المفاهيم طيلة عقدين من الزمن.[9]

وقد دفعت حركات التّحرر القومي مع جملة التّحولات الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي بهذا التّوجه الإيديولوجي في الحركة الأدبية والنقدية.

حيث وجد الفكر العربيضالّته في مبادئ النقد الإيديولوجي التي كانت تدعو إلى الاهتمام بقضايا المجتمع والعمل على تصوير معاناة أفراده، والبحث عن الحريّة في عالم كان يرنح تحت الأغلال، ذلك ما يذهب إليه "**جابر عصفور**" في قوله: "لم يكن من قبيل المصادفة أن يغدو المذهب الواقعي، كمّا وكيفا، أكثر المذاهب الأدبية والنقدية شيوعا في الوطن العربي، وذلك بسبب مبادئه التي تصل وصلا حميما بين الفن والواقع في حركته المتحولة، والتي تؤكد ضرورة الالتزام بنقد الواقع الساكن وتعرية سلبياته، تطلعا إلى واقع جديد وتبشيرا به"[10]. فالواقع ومضامينه يشكل مرجعية أساسية لأصحاب التوجه الإيديولوجي.

يتّضح من القول السّابق أن التيار الإيديولوجي تزامن وظهور حركات التحرر القومي في الوطن العربي، حيث حاول الأدب ومعه النقد الاستجابة للمتغيرات المحيطة، باتخاذ مواقف تدعو إلى أنماط جديدة لم تعرف سابقا. ويعد كتاب "في الثقافة المصرية" لصاحبيه "**محمود أمين العالم**" و"**عبد العظيم أنيس**" من أهم ما أُلّف في تلك الفترة، حيث حاول إرساء قواعد وأسس النقد الواقعي. وتعاقب إصدار الكتب في نفس الاتجاه، وتعد كتب **محمد مندور** مرجعا أساسيا للنقد الواقعي في النقد العربي الحديث.

ويشير الدكتور **صلاح فضل** في كتابه "منهج الواقعية في الإبداع الأدبي" إلى أن النقد العربي كان أقل حظا في استثمار مبادئ الواقعية مقارنة بالأدب، وقد اقتصرت جهوده على تيارين: الأول تعرض لها بشكل عام خالط بينها وبين الطبيعية التي تطفو عليها النزعة التشاؤمية لكونها غرقت في مستنقع ترصد السلبيات، غافلة في الوقت ذاته عن الجانب الفني الإبداعي. أما التيار الثاني فأفرط في الإيديولوجيا الماركسية، وتعصب لها بشكل لم تشهده حتى في موطنها الأصلي.[11]

وبالعودة إلى النّقد العربي المعاصر يتّضح أن بنياته الخطابية تزخر بالكثير من الأنساق المضمرة، سواء كانت فلسفات أو نظريات أو رؤى عقائدية، وهي غالبا ما توجه رؤية الناقد وتحدد مساره النقدي وعى ذلك أم لم يعه، ونسعى من خلال ما سيأتي تجلية تلك الأنساق المتضمنة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، وإبراز مدى خطورتها في توجيه فكر الناقد أثناء ممارساته النقدية، ومحاولة صياغة البديل الإيجابي الذي يحفظ حق النصوص المختلف معها، مهما كان نوع الاختلاف.

7-تمثّلات الأنساق الإيديولوجية في النّقد العربي المعاصر:

7-1-النّسق الحداثوي:

يعبّر مفهوم الحداثة في ظاهره عن معنى التّحديث والتّجديد لما هو قديم، وهو مفهوم شامل وواسع يكتسي دلالته حسب الميدان والسياق الذي وظف فيهما. وظهر نتيجة التحولات الطارئة على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في العالم الغربي، وأدت إلى تغيير طرائق التفكير وزوايا النظر.

والحداثة في الدّراسات الأدبية والنقدية هي اتّجاه فكري مسّ أغلب المذاهب والمدارس الأدبية والنقدية، بهدف إحداث تغييرات في المفاهيم القديمة السائدة، وارتبطت الحداثة بمفهوم آخر هو الأصالة، الذي نلخص دلالته من معجم اللغة العربية المعاصرة بكونه المقدرة على التفكير والتعبير عن الذات بطريقة مستقلة.

وتضع **خالدة سعيد** في مؤلفها "الملامح الفكرية للحداثة" فوارق بين الحداثة والتجديد، تتمثل في شمولية الأولى وخصوصية الثاني "الجديد نجده في عصور مختلفة، لكنه لا يشير إلى الحداثة دائما"[12]

وهناك من يفرق بين الحداثة الزمنية والحداثة المعرفية، ف**الجاحظ** مثلا يمثل أفضل الحداثيين في عصره بفضل أسئلته المعرفية العميقة، التي قد يعجز عن طرحها مفكري العصر الراهن.

والأمر نفسه مع أشعار **امرئ القيس** و**أبي نواس**، فكلها تدور في فلك الحداثة، لأنها أصيلة في هوية دينامية تضمن لها الاستمرارية والامتداد إلى اللحظة الراهنة.[13]

وبالتّالي يصبح معنى الحداثة مقارنة بالمفهوم الذي تتمثله المعاصرة أعمق، لكونه يرتبط بالمستوى المعرفي لا البعد الزمني، فالحداثة الحقة هي تطوير في الوعي اتجاه متغيرات الحياة، وبناء عليه تصبح حداثة النص هي عبارة عن موقف يعبر به المبدع عن تجربته بروح عصرية.

لكن، وبعيدا عن الكلام النظري، يعّد الطرح السابق حلما بعيد المنال على أرض الواقع، إذ يتضح أن الممارسة التّطبيقية تشي بأشياء أخرى، إنها تضع الحداثة بما لا يدع مجالا للشك الموضع الإشكالي، إنها منبع جُلّ الأزمات الفكرية العربية المعاصرة، فمعتنقوها لم يضع حدودا فاصلة بينهم وبين مقولاتها ولا خلفياتها المعرفية، مما أدى إلى بروز فجوة واضحة بين المنطلقات النظرية والممارسة العملية، مما يجعلهما ينأيان كثيرا عن النسق المعرفي.

فكثيرا ما عدت قراءة الحداثيين قراءة معبرّة عن رؤية انبهاريه بأفكار الحداثة الغربية التي تدعو إلى التجديد على كافة المستويات، وبالمقابل تنادي بخطاب القطيعة مع كل ما هو تراثي، معتبرة النموذج الغربي هو "الأنموذج الأعلى" للإنتاج والإبداع، كما تبالغ هذه القراءة في الاحتماء بمنجزات الآخر، رافعة إياه إلى مرتبة النزاهة والعصمة، فكان أصحابه "يرددون ليل نهار، أنه لابد لنا إن أردنا الوثوب من رقدتنا والخروج عن خيبتنا، من القطيعة المعرفية مع التراث، ودفن الماضي بكل ما فيه إلى الأبد، لنبدأ من واقعنا وحاضرنا"[14]، وبهذا التصور تم صرف النظر عن جواهر ثمينة، وذخائر قيمة زخر بها هذا التراث، كان الأولى استثمارها والانتفاع بها. إن الحداثة وفق هذه الرؤية تتحول إلى استعباد فكري قهري على العقل العربي.

إنّ هذه الرؤية غالبا ما تنطلق من القراءة السطحية للنظريات والمناهج المعاصرة وفق منهج وصفي يكتفي بإبراز تفوق الغرب على الشرق، بعيدا عن استنطاق الأنساق المعرفية والثقافية لهذه المفاهيم الحداثية.

وإنه لموقف لا يخلو من تطرّف، لأنه سيؤدي إلى تضييع قضايا بالغة الأهمية في الفكر العربي، وإلى استهلاك طاقات رهيبة من أجل تقديس اجتهادات ومنجزات –مهما عظمت قيمتها- تبقى قابلة للتعديل والتطوير باستمرار لأنها في النهاية اجتهادات بشرية، كما أن "سلطة الأنموذج" من شأنها أن تعرقل الاجتهاد وتجمد الإبداع.

كما يجد المتتبّع للخطاب الحداثي أن جزءا غير يسير منه تموقع كنسق معارض ليس للتراث فقط بل للدين (الإسلامي) ومنظومته الأخلاقية، فها هو الحداثي **سلامة موسى** أول ما دعا إليه هو تحرير المرأة من الحجاب ومن قيود الأبوية والمساواة بين الجنسين، ويحاول أن يسوغ لتلك الدعوة بالضرورة الاجتماعية التي فرضتها تحولات العصر[15]. تلكم هي الإيديولوجيا النتنة المضمرة في بنية خطابية جمالية ظاهرها حق وباطنها خبث.

أما**الجابري** فيعتقد "أن النهضة العربية قد أخفقت بسبب خضوعها لسيطرة السلف ذي الأنموذج الإسلامي (...) وتجاوز ما سبق لن يكون إلا عن طريق الاستقلال التاريخي التام للذات العربية"[16]

7-2-النّسق التراثي:

وهو النّسق الذي هيمن طويلا في الفكر العربي، وكانت بداياته مع عصر النهضة، حيث أثيرت عديد القضايا المتعلقة بالهوية العربية الإسلامية، فكانت الدعوة إلى العودة إلى التراث العربي حفاظا على مقومات

الذات العربية وصيانة لخصوصياتها أمام المشاريع الإستعمارية التي لم تدخر جهدا في طمس ملامح الهوية العربية الإسلامية، وفي وجه الاستيلاب الفكري والمغالطات التي أفرزتها المشاريع الاستشراقية ودراسات أتباعهم من الباحثين والكتاب العرب الذين راحوا "يجردون الأدب العربي من خصائصه التي تشكلت في أحضان اللغة العربية والعقيدة الإسلامية (...) ويفصلونه عن جذوره التي منحته هويته وظلت تزوده بشروط حياته، ويدخلون عليه من المضامين ما ليس من ثقافته، ومن مذاهب ما ليس من عقيدته"[17]

لكن بالعودة إلى غربلة الإضافات الحقيقية التي قدمها أصحاب هذه الاتجاه النقدي، يتضح أن جلها اقتصر على ما يسمى بالتحقيقوالقراءات التاريخية للمخطوطات والمدونات القديمة بغية ترهين التراث العربي، وهي عملية –على حسب رأي **سعيد يقطين**- قد سبقت إليها الدراسات الاستشراقية، إذ يقول: "كان أهم إنجاز تحقق منذ هذه الحقبة هو تحديث أدوات قراءة التراث بظهور علم التحقيق الذي اتبع فيه الباحثون العرب المنهجية التي سار عليها الغربيون في قراءة تراثهم"[18]

وعليه يكاد الموقف التّراثي يتراءى للعيان شبيها بسابقه، إنه لا يتعدى التقديس والتقليد "فما أكثر ما تحدثنا عن التراث، لكننا في المقابل قلما بحثنا فيه من زاوية تدفعنا إلى تجاوز الحديث عنه بكيفية تقطع مع ما مارسناه في زمن سابق إلا ظاهريا"[19]،وكأننا في كل مرة نستخدم لغة جديدة للحديث عن التراث ولكن بذهنية قديمة، ظلت عاجزة عن تحديد الغاية المعرفية من وراء العودة إلى الماضي.

إنّه الموقف الذي ظل أصحابه ينظرون إلى الحداثة عموما نظرة عداء وكراهية، بحجة أنها تمثل منجزات الآخر المختلف فكريا وحضاريا وعقائديا عن الذات العربية، فلم يدخروا جهدا في نقدها وإثبات ثغراتها المعرفية وإبراز خطرها على الفكر العربي في مختلف مجالاته، وتقديم النتائج سلفا حتى قبل خوض التجربة "بدأت خصائص الأدب العربي إذن تواجه تجربة مريرة في مواجهة خصائص أخرى لبيئة ثقافية ودينية وجغرافية أخرى مختلفة عنها اختلافا كبيرا، كان امتحانا عسيرا، وكانت عوامل الإخفاق في الامتحان أقوى من عوامل النجاح"[20]،

فإلى أي مدى يعد هذا التّخوف من قبل –التراثيين-مشروعا؟ وما هي حدوده وضوابطه حتى لا ينقلب إلى فوبيا الخوف من الآخر؟ ذلكم هو مربط الفرس.وربما سنخصّص لهذا الموضوع أبحاثا مستقلّة لأن أوراق هذا المقال على وشك النفاذ.

بناء على ما سبق، نقول بأن الأصالة الحقيقية من منظور الفكر الواعي لا تعني الانعزال والجمود، وإنما التفاعل الإيجابي مع مختلف منجزات المعرفة الإنسانية بطريقة واعية منتجة، لا يكون فيها الطرف المتأثر تابعا ذليلا ولكن مسترشدا مهتديا بنماذج راقية، وتكون علاقته بالآخر "هي تأثر وتأثير، أخذ وعطاء، و(...) أن الشرط الأول لهذه الحركة من التفاعل أن تتسم بالإبداعية والخصوصية معا."[21].

7-3-النّسق الفلسفي:

تعدّ الفلسفات الغربية على اختلاف اتجاهاتها ومذاهبها بمثابة المرجعيات المعرفية الأساسية للنظريات النّقدية المعاصرة، حيث شكّلت تربة خصبة لنمو وتبلور تلك النظريات، وتعد الماركسية أبرز تلك الفلسفات التي ظهرت في القرن التاسع عشر، واشتهرت بعدة تسميات أهمّها الشّيوعية، وهي تقوم على أساس التفسير المادي للتاريخ، وتستهدف تفكيك البنيات الاجتماعية السائدة آنذاك لتكون الغلبة في النهاية للطبقة الكادحة التي تمثل طبقة العمال في المجتمع.

وقد امتدّت مقولات الماركسية من المجال الاقتصادي إلى مجالي الأدب والنقد، حيث لم يعد للأدب حسب التصور الماركسي أي قيمة فنية مستقلة، بل أصبح يخضع لمختلف القوى الاقتصادية والإيديولوجية. حيث أصبح الأديب مطالبا بأن يقدم نصوصا تعكس حالة الصراع الطبقي في المجتمع، ودائما وفق رؤية ماركسية حزبية ضيقة، حاولت أن ترافقها رؤية معتدلة نوعا ما، وذلك باحتفاظها بالقيم الفنية للأدب والتخفيف من حدة الطرح الإيديولوجي.[22]

أما في العصر الحديث فقد تلقّى العالم العربي هذه الفلسفات وهو يشهد تطورات اجتماعية وسياسية كبيرة، تمثلت أساسا في حركات التحرر القومي من الاستعمار، وكان لزاما أن يستجيب الأدب والنقد لتلك المتغيرات، وتجلت تلك الاستجابة من خلال المواقف من طروحات الماركسيين، التي تمثلت في الأحاديث والمناقشات والمعارك الأدبية والفكرية التي دارت بين فريق من الأدباء والنقاد كأحمد أمين وسلامة موسى وتوفيق الحكم وغيرهم.

وقد ظهرت عديد المؤلفات ذات التّوجه الاجتماعي الواقعي، مثل: "في الثقافة المصرية" لصاحبيه **محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس**الذي ذكر سالفا، وهو كتاب يدخل في إطار التغيير الاجتماعي، ويبرر له صاحباه بحاجة المجتمع إلى هذا النوع من الكتابة: "إن المفكر أو الفنان أو الأديب عندما يعبر إنما يختار مادته الخام من عناصر هذا المجتمع ومن علاقاته المتفاعلة، أراد هذا أم لم يرد، قصد هذا أم لم يقصد. وإن هذه العناصر والعلاقات تكشف في داخلها عن موقف محدد من هذا الاخطبوط الاستعماري الجاثم على وجداننا القومي، المعرقل لعملياتنا الإنتاجية الابداعية"[23]، يتضح من هذا القول أن الاهتمام بفنيات الكتابة الأدبية وتقنيات الإبداع لم يكن ضمن أولويات المؤلفين في هذا الكتاب.

وظهر أيضا كتاب "دراسات في ضوء المنهج الواقعي" ل**حسين مروة**، والذي يقول عن أسباب تأليفه: "جاء ليخلص النقد من فوضوية النقد الانطباعي المحض، لكي يدخل نقدنا العربي في عصر المنهجية النقدية"[24].

وقد أصدر **سلامة موسى** أيضا كتابه "الأدب للشعب" الذي انتصر فيه للأدب الجديد مقابل الأدب القديم، على اعتبار أن الجديد أصدق في التعبير عن مشاعر النفس الإنسانية، وفي تصوير الضمير الشعبي من القديم الذي تمحور حول الذات وانغلق عليها، كما يضع فيه شروطا للأدب والأديب يجب الالتزام بها حتى يكون الإبداع اللسان الناطق بحال الشعب وظروفه المختلفة التي يعيشها، سياسية ثقافية فكرية واجتماعية، فالأدب

شعبي بالدرجة الأولى.[25]، ولا يخفي **سلامة** تأثره بالفكر الماركسي، بل يعتبر**كارل ماركس** هو الأستاذ والمربي، وهو يعترف علانية بتأثرهبكارل ماركس، ويرى أن نظرياته ضرورية لفهم وتحليل التاريخ.

وقد اجتذب أيضا التّيار الواقعي الاشتراكي الناقد **محمد مندور**، وتجلى ذلك في العديد من مؤلفاته، أبرزها "النقد المنهجي عند العرب" و"النقد والنقاد المعاصرون"، وتجدر الإشارة إلى أن **مندور** ركز على الجانب الجمالي الشعوري للعمل الأدبي إلى جانب الموقف الاجتماعي.

وتوالى ظهور الأسماء العربية التي ساهمت بشكل أو بآخر في بلورة هذا المنهج، نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر:**لويس عوض، عصام حنفي، عمر فاخوري، غالي شكري، فريدة النقاش، عبد الرحمان ياغي**، وغيرهم كثيرون.

7-4-النّسق المعرفي:

وهو النّسق الذي حاول تجاوز القراءات السابقة، وتمثّل طريق ابستيمولوجي، إذ يرى أن الحاجة الفعلية للفكر العربي تتمثل في قراءة الذات العربية أولا (التراث) قراءة واعية متأنية، ثم البحث عن مواطن الضعف والخلل والعمل على سدها، ولن يتأتى ذلك إلا بالتفاعل الإيجابي مع أنفع وأصلح ما قدمته المعرفة الإنسانية بعيدا عن العقد الحضارية.

ولن ينجح ذلك إلا بتهيئة بنية فكريّة عربية تمثل حالة ملائمة للاستقبال لدى المتلقي العربي، تعين على تحقيق التجاوب الفعال بين المتأثر والمؤثر، وذلك يستدعي إيجاد مبدع أو ناقد واع "يكون على حظ كبير من العقل والذوق ورهافة الحس، بالإضافة إلى ثقافة منوعة واطلاع واسع على الآداب"[26]، حتى يتسنى له التفاعل الإيجابي مع مختلف الرؤى والتصورات التي من شأنها أن تسهم في إثراء الآداب وتطويرها.

فالعودة إلى تجارب الآخرين، "أمر لا شك في جدواه، إذا كانت هذه العودة لغرض الإضافة والتجاوز، لا لغرض الاجترار والتكرير"[27]. ولن تتم هذه الإضافة والتجاوز إلا إذا تنوعت وتعددت أشكال التفاعل، بين المحاورة والمحاكاة حينا، والمعارضة والنقد أحيانا أخرى، وتقديم البدائل المعرفية في مرحلة متطورة من الوعي والإنتاج الفكري.

ويمكن اعتبار هذه القراءة نتاج تطور حركة الوعي النّقدي العربي المعاصر، وهي تنظر إلى التّراث العربي على أنه تراث حيّ لكونه ما زال ممتدا في وجدان وحاضر الأفراد، وتدعو إلى إعادة قراءته بوعي جديد، عن طريق محاورة مضامينه المغيبة ومساءلة أنساقه المعرفية والثقافية، مستعينة في ذلك بأنفع ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية من مناهج وخبرات، ذلك ما يعبر عنه أحد الباحثين في قوله: "الحديث عن القديم يمكن من رؤية العصر فيه، وكلما أوغل الباحث في القديم وفك رموزه وحل طلاسمه أمكن رؤية العصر والقضاء على المعوقات في القديم إلى الأبد، وإبراز مواطن القوة والأصالة لتأسيس نظرتنا المعاصرة، ولما كان التراث يشير إلى الماضي والتجديد يشير إلى الحاضر، فإن قضية التراث والتجديد هي قضية التجانس في الزمان، وربط الماضي بالحاضر وإيجاد وحدة التاريخ".[28]

وتعدّ مجهودات **طه عبد الرحمن** من أنجع وأنفع ما قدم في هذا المجال، فالرّجل لم يرفض الحداثة وإنما حاول استخلاص روح الحداثة من خلال مؤلفاته العديدة في هذا المجال، من قبيل: "روح الحداثة" و "سؤال الأخلاق" و" روح الدّين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية" و"الحوار أفقا للفكر"، و"الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري" و"سؤال المنهج -في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد-" و"تجديد المنهج في تقويم التراث" وغيرها من المؤلفات الهامة التي تشكل حلقات مشروع ابستيمولوجي طموح، يسعى فيه**طه عبد الرحمن** إلى تقديم البديل الإيجابي .

وغير بعيد عن **طه عبد الرحمن** نجد النّاقد الجزائري **عبد الملك مرتاض** وقد عايش مختلف المراحل النقدية في الفكر العربي، يقدم إسهامات هامة ومتنوعة حاول من خلالها تمثل موقف نقدي إيجابي في تفاعله مع المنجزات الغربية، إذ يحاول ترويضها وتكييفها للتوافق مع خصوصيات النص العربي. ونذكر من هذه الأعمال: "في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد" و"في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها" و"نظرية النص الأدبي" و"قضايا الشعريات، متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصرة" و"الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة" و"السرد والسردانية، عرض لنظريات السردانية العربية المعاصرة وتحليلات لبعض نصوصها".

كما أن المتتبّع لتجربة **مرتاض** النقدية يجد "أن بالإمكان دراسة نص قديم بأدوات منهجية حداثية، دون استنفاد أسراره وخفاياه، وقد فعل النّاقد ذلك مع نص لأبي حيان التوحيدي وآخر من حكايات ألف ليلة وليلة، وبعض من أجزاء الذكر الحكيم"[29]، حيث كان يستحضر نصوصا تضرب في عمق الماضي البعيد ويحاول مقاربتها بمناهج وآليات حداثية.

بناء على ما سبق، لأجل بلوغ قراءة صحيحة واعية للمفاهيم الحداثية، لابد من تكثيف وتعميق الالتفات إلى التراث العربي عن طريق الانفتاح على مختلف المنهجيات المعاصرة التي أفرزتها المعرفة الإنسانية -لاسيما في مجال النقد والأدب-دون إلغاء أو تجاوز الخصوصيات المعرفية والثقافية للحضارة العربية، وذلك ضمانا للتطور والاستمرارية، وانتقالا من وضعية التكرار والاجترار إلى الإبداع والابتكار، ومن السكون والجمود إلى الاجتهاد والتحليل.

8_ الموقف النّقدي بين النّسق الإيديولوجي والنسق المعرفي:

إنّنا إذا سلمنا سلفا بموضوعية القراءة المحايثة نظرا لتخففها من الحمولة الإيديولوجية، فإننا في النّقد أيضا نحن بحاجة ماسة إلى موقف نقدي محايث يستطيع فيه النّاقد إيجاد مسافة أمان بين إيديولوجياته الخاصة التي هي جزء من بنيته الفكرية وبين مواقفه النقدية التي تتطلب الموضوعية قدر الإمكان.

إنّ النّاقد الأمين لا ينتصر للرداءة الفكرية لمجرد أنها تتوافق مع مواقفه ورؤاه، ولا يغمط حق الكفاءة الفكرية لمجرد اختلافه مع أصحابها، إن هذا الفكر الذي عمر طويلا في الساحة النقدية العربية أثبت الزمان أنه لا يعود بأي نفع على النصوص العربية، أو الثقافة العربية في شموليتها.

فالإيديولوجيا ومن خلفها الذّاتية القاحلة هي من تنتصر على حساب الأبستمولوجيا ومن ورائها الموضوعيّة المنتجة، إنّ النجاح في صنع مسافة أمان نقدية هو الإبداع ذاته.

إنّ المفكّر العربي حرّ في كل ما يختاره من رؤى ونظريات أو ينهجه من مناهج وآليات، لكن بالمقابل هو مسؤول ومُساءَل عن خياراته ونوع الإضافات المعرفية التي ستقدمها للفكر العربي، فلا معنى لانفتاح من أجل الانفتاح، ولا لمثاقفة من أجل المثاقفة، إن المطلوب هو الانفتاح الواعيّ والمثاقفة البنّاءة التي تسدّ الثّغرات وتطعم الفكر العربي بكل ما طاب من رؤى وتصورات.

خاتمة:

حاولت هذه الورقة البحثيّة الكشف عن أهم الأنساق الإيديولوجية المضمرة في ثنايا الخطاب العربي المعاصر والمتحكمة في توجيه مساراته، وذلك من خلال تقديم قراءة شاملة للظروف والعوامل التي أدّت إلى بروز تلك الأنساق، التي أتت في خضم روافد الأفكار والنظريات الحداثية. مع الوقوف على أهمّ معطيات هذا الفكر النّقدي العربي المعاصر في قراءته للنصوص العربية، ومحاورة خصوصية هذه القراءة ويمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث، على النحو التالي:

-يتّخذ النّسق مفهوم النظام الواحد، وينقسم إلى ظاهري ومضمر في الخطاب الواحد، ويمتاز بخاصيتي التّخفي والتّأثير عبر البنية الجمالية اللغوية.

-تتعدّد مفاهيم الإيديولوجيا حسب الحقل الذي توظف فيه، ويعد الفكر الماركسي هو المرجعية الأساسية لها، وتمتد الإيديولوجيا إلى النصوص الإبداعية وتظهر كبنيات جمالية أكثر منها إيديولوجية.

-تعدّ الإيديولوجيا في النقد بمثابة الوعي الزائف.

-دُجّج الخطاب النقدي العربي المعاصر بالكثير من الأنساق الإيديولوجية، ويعد النسق الحداثوي من أبرزها، وهو يعبر عن رؤية انبهارية تبرز تفوّق الغرب على الشرق، وتكرس لفكرة عجز العقل العربي.

-عارض النّسق التّراثي الخطاب الحداثي بشدة دون تقديم بدائل معرفية ذات قيمة، حيث اقتصرت مهمته على التحقيق والقراءات التاريخية للمنجز النقدي القديم.

-شكّل النسق الفلسفي مرجعية معرفية أساسية للفكر العربي المعاصر، وتعد الماركسية أهمها.

-يمثّل النّسق المعرفي الطريق الأمثل للفكر النقدي العربي المعاصر من أجل إقامة علاقة تفاعل إيجابي مع المنجزات التي قدمتها المعرفة الإنسانية، بعيدا عن العقد الحضارية واحتراما لخصوصية النصوص العربية.

-يجب على الناقد إيجاد مسافة أمان بين إيديولوجياته الخاصّة التي هي جزء من بنيته الفكرية، وبين مواقفه النّقدية التي تتطلّب الموضوعية قدر الإمكان.

هوامش وإحالات المقال

[1]-جمال الدينبن منظور : لسان العرب:، دار صادر، بيروت، ط3 ، 1414ه ، مج 5، ص 412

[2]- ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص 76، 77

[3].- الغذامي: النقد الثقافي، ص 79

[4].- محمد برادة: محمد مندور وتنظير النقد العربي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1979، ص 170

[5].- أحمد حمدي: جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري، دار معالم، القصبة الجزائرية، 2001، ص 47

[6]- ينظر: حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا –من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص، المركز الثقافي العربي، 1990 ص 66

[7]- عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، ص 34

[8]- تيري إيجيلتون: النقد والأيديولوجية، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 1992، ص 17.

[9]- ينظر: سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص 253

[10]-جابر عصفور: تحديات الناقد المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2014، ص 257

[11]-ينظر: صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف، ط2، 1980، ص8

[12].- خالدة سعيد: الملامح الفكرية للحداثة: ص 25

[13]- ينظر: محمد علاء الدين: مقدمة في نقد الحداثة بين البدع و والاختلاف، الحوار المتمدن، العدد 1434، 2006

[14].منير جمعة: تراث معاني القرآن في العربية، الجزء الثاني، دراسة صوتية، بلنسية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص 7

[15]- سلامة موسى: المرأة ليست لعبة الرجل، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2011، المقدمة (ص7، ص 8)

[16]-أحمد برقاوي: في الفكر العربي الحديث والمعاصر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2015، ص 14

[17]-عبد الملك بومنجل: الأدب العربي بين الأصالة والتبعية، دار البدر الساطع للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2015، ص63

[18]-سعيد يقطين: الفكر الأدبي: 279

[19]-سعيد يقطين: الفكر الأدبي العربي، البنيات والأنساق" منشورات ضفاف، المغرب، ط1، 2014، ص277

[20]عبد الملك بومنجل: الأدب العربي بين الأصالة والتبعية، ص 64

[21]..أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985، ط2، 1989، ص 97

[22]-ينظر: دليل الناقد الأدبي، ص 217

[23]-سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص 254.

[24]..المرجع نفسه، ص155

[25]. -سلامة موسى: الأدب للشعب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 1956ص14

[26]. -عبد القادر هني: نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت، 1999، ص32

[27]. -عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص 08

[28]- حسن حنفي: التراث والتجديد، موقف من التراث القديم، دار التنوير للطباعة و النشر، لبنان ص 17

قائمة المصادروالمراجع:

-أحمد برقاوي: في الفكر العربي الحديث والمعاصر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2015

- أحمد حمدي: جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري، دار معالم، القصبة الجزائرية، 2001

-أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1985، ط2، 1989

-حسن حنفي: التراث والتجديد، موقف من التراث القديم، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 1980.

- حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا –من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1990.

-جابر عصفور: تحديات الناقد المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2014

-جمال الدين بن منظور: لسان العرب: دار صادر، بيروت، ط3 ، 1414ه ، مج 5

-خالدة سعيد:الملامح الفكرية للحداثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1984.

-سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000.

-سلامة موسى: الأدب للشعب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 1956

-صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف، ط2، 1980

-عبد القادر هني: نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت، 1999

--عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، د ت.

-عبد الملك بومنجل: الأدب العربي بين الأصالة والتبعية، دار البدر الساطع للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2015

-عبد الله العروي: مفهوم الإديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5

- محمد برادة: محمد مندور وتنظير النقد العربي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1979

- منير جمعة: تراث معاني القرآن في العربية، الجزء الثاني، دراسة صوتية، بلنسية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006

- محمد علاء الدين: مقدمة في نقد الحداثة بين البدع و والاختلاف، الحوار المتمدن، العدد 1434، 2006.

[29]- يوسف وغليسي: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، 2002، ص 126